بين الميتافيزيقا والشعر

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

ليس أقسى على نفوس الفلاسفة من أن يقال عنهم انهم شعراء ضلوا سبيلهم ، او موسيقيون عدموا كل موهبة موسيقيه ! وليس أبغض الى قلوب الشعراء من أن يقال عنهم انهم فلاسفه صاغوا مذاهبهم بطريقة لا شعورية ، أو «ميتافيزيقيون» أعوزتهم الصياغة العقليه ! والواقع ان الفيلسوف حريص دائما على أن يقاس مذهبه بمقياس الحق لا الجمال . في حين ان الشاعر يتطلب منا دائما ان نحكم على شعره بمعايير الحسن والقبح لا بمعايير الصدق والكذب ، فليس بدعا ان يسناء كل منهما لهذا الخلط البغيض بين الميتافيزيقا والشعر . حقا ان في الميتافيزيقا خيالا شعريا ضمنيا كما أن في الشعر تفكيرا ميتافيزيقيا ضمنيا ، ولكن الخيال الميتافيزيقي لا بد من ان يلبس قناعا عقليا تصوريا ، كما أن الفكرة الشعريه لا بد من ان ترتدي ثوبا حسيا عاطفيا . فليس في وسع الفيلسوف أن يقيم مذهبا ميتافيزيقيا متكاملا على دعامه من الاحساس والخيال والعاطفة ، كما انه ليس في وسع الشاعر أن يقدم لنا ملحمة شعرية تستند الى براعة عقليه صرفة في الربط بين الافكار والمفاهيم ! ومهما كان من أمر الجمال الفني الذي قد ينطوي عليه المذهب الميتافيزيقي ، فان العمل الفلسفي هو أولا وقبل كل شيء انتاج عقلي يقوم على الفهم والتركيب والتأويل . ومهما كان من أمر الحقيقة العقلية التي قد تكشف عنها القصيدة أو الملحمة ، فان العمل الشعري هو أولا وقبل كل شيء انتاج فني يقوم على الاحساس والانفعال والتأثير .

وهنا قد يعترض البعض على التقريب بين الفلسفة والشعر ، بحجة أنه ليس في الشعر أي موضع للتفكير أو التعقل او التصور الذهني بأي وجه من الوجوه . واصحاب هذا الرأي يبادرون فيسردون علينا قصة المصور الفرنسي دوجا Degas الذي مضى يوما يشكو الى الشاعر مالارميه Mallarmé ، حاملا بين أصابعه قصيدة كتبها بعد جهد جهيد ، وهو يقول : « لقد عانيت الامرين ، ومع ذلك فقد كان لدي الكثير من الافكار » . ! فما كان من الشاعر الفرنسي الكبير سوى أن أجابه بقوله « حسنا يا دوجا ، ولكن القصيدة لا تصنع من أفكار ، وانما تصنع من الفاظ » ! . بيد ان دعاة هذا الرأي يتناسون أن اللغه الشعرية لا بد من أن تقول شيئا ، وأن سحر الشعر انما يكمن على وجه التحديد في أنه ينتزع من الالفاظ طابعها اللغوي العادي ، لكي يسبغ عليها طابعا تعبيريا جديدا ، فلا يكون اللفظ سوى مجرد واسطة تنتقل عبرها الفكرة لكي تستحيل الى تعبير . ولعل هذا ما عناه عالم النفس الفرنسي دلاكروا حينما كتب يقول : « انه ليس ثمة فكر بالنسبة الى الشاعر ــ كما هو الحال بالنسبة الى سائر الفنانين ــ اللهم الا اذا وقع هذا الفكر تحت طائلة الحس . ولا تكون الفكرة شعرية في حد ذاتها ، وانما هي تصير كذلك . وليس ثمة فكرة لا يمكن أن تصبح شعرية ، كما أنه ليس هناك شعر يستحيل علينا أن نستخلص منه فكرة شعرية . ولكن الفكر الشعري ليس فكرا نفعيا ، او فكرا منطقيا ، او فكرا نظريا ، بل هو أولا وبالذات فكر مغلف في صور الخيال الرمزي » . (١) واذن فليس في وسعنا أن نقول مع مالارميه ان الشعر يتألف من « **الالفاظ** » وحدها ، بل لا بد لنا من أن نسلم منذ البداية بانه لا بد من « **الافكار** » لكل من يريد ان يكون شاعرا أو مصورا أو موسيقارا . . . الخ . حقا ان لغه الشعر لا تنطوي على تفكير مجرد ، أو انفعال مجرد ، أو تحديد دقيق لبعض موضوعات الحس ، ولكن من المؤكد أن المرء لا يصبح شاعرا الا اذا أحس بالرغبة في أن يقول شيئا ، وهو لن يحس هذه الرغبة اللهم الا اذا انبثقت في ذهنه خطرات ، وأفكار ، وانفعالات ، تدفعه الى أن يقول : « لقد كذب لابرويير Labruyère حين قال : « ان كل شيء قد قيل ، والمرء لا يقدم الا بعد فوات الاوان » ! فليس الشعر الفاظا ، وايقاعا ، وموسيقى فحسب ، وانما هو أيضا أفكار ، وتعبير ، وحقيقة ! ولن تكون شاعرا ، اللهم الا اذا أحسست أنك تستطيع ببعض الالفاظ العادية أن تنقل الى الآخرين أعمق الافكار ، وأدق الاحاسيس ، وأرق الانفعالات . . .

والحق أن ما يجمع بين الشعر والميتافيزيقا انما هو أولا وبالذات تلك « الصدمة Choc الميتافيزيقية » التي تحدثها لدينا بعض القصائد الرائعة ، وكأنما هي أنظار فلسفية عميقة قد كشفت لنا على حين فجأة عن قرارة الوجود الانساني ، أو أعماق الطبيعة البشرية ، أو الغور السحيق للوجود العام نفسه . فالقصيدة العميقة لا تكاد تخبرني بشيء أجهله عن العالم الخارجي ، أو هي قلما تكشفت لي عن وقائع خاصة أدركها للمرة الاولى ، وانما هي تجيء فتعبر لي بطريقة أصيلة عن احساس غامض كان يعتورني ، أو تجربة ميتافيزيقية عميقة سبق لي أن مررت بها ، أو خبرة نفسية دقيقة اجتزتها في وقت ما من الاوقات . وهنا يجيء الشاعر فيكشف لي عما في الطبيعة من عنصر ميتافيزيقي ، أو يظهرني على ما في اللحظة العابرة من طابع أزلي أبدي ، وكأن الالفاظ التي يستخدمها الشاعر مجرد رموز تشير بطريقة خفية غامضة الى عمق الحياة ، ولا نهائية الوجود ، وسر المصير . . . الخ .

حقا ان الشعر لا ينطوي على تصورات ، ولا يكاد يستعين بأي مقولات او مفاهيم ، ولكن من المؤكد ان ثمة ميتافيزيقا ضمنية تكمن في ثنايا قصائد كثير من الشعراء الممتازين ، من أمثال كيتس ووردسورث ، وشلي ، هيلدرلن ، ونوفالس ، ووليم بليك ، وبول فاليري ، وكلودل ، وغيرهم . . واذا كان شلنج قد عرف الشعر بانه اتحاد الشعور

(١) H. Delacroix : «Psychologie de l'Art» , Paris, Alcan, 1927, p. 93-4

واللاشعور ، والذاتي والموضوعي ، فليس بدعا ان تكون القصيدة اقدر الوسائل الفنية على التعبير عن متناقضات الوجود الانساني بما يجيء معها من صراع وتوتر وتمزق . ونحن نعرف كيف وصف لنا هرقليطس، وهيجل، وكيركجارد وبرجسون، وغيرهم مظاهر هذا التناقض ، ولكننا نجد لدى شاعر مثل نوفالس Novalis اروع تصوير لهذا التناقض الذي حار في وصفه كبار الفلاسفة : ففي قصيدته المشهورة المسماة باسم « زواج الفصول » (٢) نراه يصف لنا اتحاد المتناقضات ، بينما نراه يحدثنا في موضع آخر عن « الشاعر » فيقول انه الانسان الذي يشعر على نحو ما من الانحاء باللاشعور ، أو هو الرجل الذي يحلم دون ان يكون مستغرقا في النوم ، او هو بالاحرى ذلك المخلوق الذي يظل مستيقظا حتى حين يحلم ! فليس الشاعر مجرد مجنون يهذي بابيات رائعة لا يدري من اين استقاها ، وكأن الشعر أن هو الا محض هذيان او مجرد احلام ، وانما الشاعر هو ذلك المخلوق الناطق الذي يريد ان ينظم احلامه ، ويسيطر على هذيانه ، ويتحكم في احاسيسه ، لكي يصوغها على صورة موسيقى تمتزج فيها الفكرة بالعاطفة ، وتتحد فيها المعاني والالفاظ .

فاذا ما تساءلنا بعد هذا عن المراد بالميتافيزيقا ، وجدنا ان موضوع الميتافيزيقا قد تغير على مر العصور : فهي كانت تعني عند افلاطون علم المثل ، ثم صارت عند ارسطو علم العلل ، ولم تلبث ان اصبحت عند المدرسة الافلاطونية الحديثة بمثابة علم الوحدة . اما في العصور الحديثة فقد فهم ديكارت من الميتافيزيقا انها علم اللامادي ، بينما اعتبرها اسبينوزا علم الجوهر ، وجعل منها ملبرانش علم الصور ، وليبنتس علم القوى البسيطة او الذرات الروحية . ثم جاء شلنج فأحالها الى علم المطلق بينما جعل منها هيجل علم « الفكرة المحضة » او الحقيقة الروحية الخالصة ... الخ . ولكن مهما كان من اختلاف موضوع الميتافيزيقا عند كل هؤلاء الفلاسفة ، فان من المؤكد انهم جميعا كانوا يعدون الجهد الميتافيزيقي بمثابة محاولة شاقة يبذلها العقل البشري في سبيل الهبوط الى قرارة الاشياء، أو الصعود الى قمتها . ومعنى هذا ان الميتافيزيقي انما هو — على حد تعبير جاك ماريتان — ذلك المفكر الذي يؤمن بان عقل الانسان يعلو على الانسان ، وان في وسع الموجود البشري بوصفه موجودا ميتافيزيقيا ان يطير بأجنحته ! فاذا ما قيل لنا انه ليس لدى البشر سوى ارجل واذرعة ، كان رد الميتافيزيقي على هذا القول ان لدى البشر ايضا أجنحة متقلصة ، وان في امكان هذه الاجنحة ان تنمو ، لو كان لدينا القدر الكافي من الشجاعة ، ولو استطعنا ان نفهم اننا لانتكيء على الارض وحدها، وأن الهواء الذي يحيط بنا ليس مجرد فراغ!(٣) فالميتافيزيقا الحقة انما هي تلك التي تستطيع ان تقول « ان مملكتي ليست من هذا العالم » ، والميتافيزيقي الحق انما هو ذلك الانسان الذي يريد ان ينعطف برأسه نحو النجوم، مثبتا قدميه في الوقت نفسه فوق الارض .

ولو اننا اعتبرنا « علاقة الانسان بالكون » هي المشكلة الميتافيزيقية الاولى ، لوجدنا أن الشعراء قد اهتموا بحل هذه المشكلة على طريقتهم الخاصة ، فاستوعبوا شتى المواقف المحتملة في تحديد صلة الانسان بالطبيعة . فهذا ليكونت دي ليل Leconte De Lisle في « اشعاره البربرية » يهتف قائلا : « صه ايها الانسان ، فان السماء خرساء ، والارض نفسها تزدريك » ، وكأنما هو يريد ان يقول لنا انه ليس في العالم سوى آلية عمياء ، وان الانسان نفسه ليس سوى عرض زائل لا معنى له . وهذا الفريد دي فني Vigny في قصيدته المشهورة « بيت الراعي » يعبر عن عظمة الانسان وقدرته على فرض نظامه الخاص وقيمة الانسانية على الكون فيقول : « لقد اضاء الراعي مسكنه المتواضع ، فأثبت انه اعظم من الكون الذي يتجاهله ، اذ استطاع ان يحكم عليه » . ثم هذا فكتور

(٢) Novalis : l'Ode du Mariage des Saisons

(٣) Cf. Jacques Maritain : «Les Degrés du Savoir» , 4e éd. 1946; p. 6

كيتس

شوبنهور

شللي

نوفالس

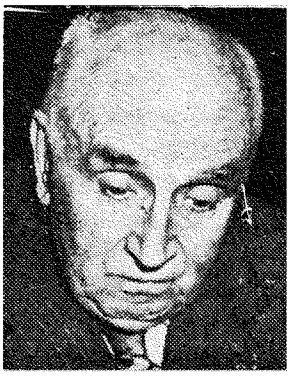

كلوديل

هيجو في قصيدته المشهورة : « أضواء وظلال » يحاول ان يوحي الينا بان في الكون غاية او مقصدا خفيا ، وان الانسان يشارك في هذا التنظيم الغائي ان من حيث يدري او من حيث لايدري ، فنراه يقول : « أيها الانسان لاتخش شيئا، فان الطبيعة تعرف السر العظيم ، وهي تبتسم » ! وهكذا نرى ان الشعراء قد شعروا بالمشكلة الميتافيزيقية الكبرى : مشكلة موقف الانسان من الطبيعة ، فحاولوا ان ينقلوا الينا احساسهم بالوجود ، وشعورهم بقيمة الانسان ، وفهمهم للعلاقة بين الانسان والكون . . . حقا ان الشعراء لم يحاولوا يوما ان يكونوا فلاسفة يبرهنون على افكار ، او ميتافيزيقيين يقدمون لنا بعض المذاهب ، ولكنهم مع ذلك قد قدموا لنا الدليل على ان الانسان ليس في حاجة الى حقائق تخدمه وتنفعه ، بل هو في حاجة الى حقيقة يخدمها ويتعلق بها ويخلص لها .

وحسبنا ان نرجع الى الحركة الرومانتية لكي نقف على تلك الصلات الوثيقة التي طالما جمعت بين الشعر والميتافيزيقا : فهذه الحركة قد عملت على بعث روح الدهشة والتعجب في نفس الانسان ، حتى لقد قيل ان الرومانتية قد احالت الاشياء المألوفة الى اشياء غريبة ، والاشياء الغريبة الى اشياء مألوفة . ولعل من هذا القبيل مثلا ماكان يفعله الشاعر الالماني نوفالس Novalis « ١٧٧٢ — ١٨٠٢ » حينما كان يضع بطله امام اشياء يبدو له انه يعرفها منذ ظهر على وجه الارض ، ولكنها في الحقيقة اشياء يعرف انه لم تسبق له رؤيتها من قبل . وهكذا كان نوفالس يحاول ان يظهرنا بطريقة سحرية غامضة على « مطلق » جديد هو في الوقت نفسه قديم غاية القدم ، وذلك بان يكشف لنا عن ذلك العنصر الغريب الكامن في اعماق نفوسنا ، وان كان في الوقت نفسه اقرب الينا من حبل الوريد ! (٤) .

واما اذا اتجهنا بانظارنا نحو الشعر الانجليزي ، فسنجد لدى كل من وردسوورث وشلى آثارا افلاطونية ظاهرة تدلنا على ان هذين الشاعرين قد شاءا ان يتمردا على آلية العلم ، لكي يكشفا لنا عما تنطوي عليه الطبيعة من قيم جمالية . ولكن على حين ان وردسوورث قد حرص على ان يكشف لنا عما في الطبيعة من ثبات واستمرار ودوام ، نجد ان شلى يهتم على وجه الخصوص بابراز ما في الطبيعة من حركة وصيرورة وتغير . وقد وضع الفيلسوف الانجليزي المعاصر هويتهد Whitehead « ١٨٦١ — ١٩٤٧ » كلا من بركلي من جهة ، ووردسوورث وشلى من جهة اخرى ، على قدم المساواة ، فقال ان هذه الشخصيات الثلاث تمثل اتجاها حدسيا يرفض ميكانيكية العلم المجردة، وليس في وسعنا هنا ان نأتي على نماذج عديدة لقصائد كل من وردسوورث وشلى التي تبدو فيها بوضوح تلك النزعة المثالية الافلاطونية ، وانما حسبنا ان نشير الى قصيدة وردسوورث المسماة باسم Prelude حيث نراه يتحدث عما في الطبيعة من وحدات عضوية ملتحمة يشعر كل منها بحضرة الاخر ، او قصيدة شلى المسماة باسم Mont Blanc حيث نراه يصف لنا تداخل المناظر الطبيعية والعقل البشري ، لكي نتحقق من ان هذين الشاعرين الرومانتيين قد نظرا الى الطبيعة نظرة عضوية حيوية ، فحاولا ان يعيدا الى عقلية عصرهما العلمية الالية

(٤) Jean Wahl : «Existence humaine et Trancendance», Neuchatel, 1944; Poésie et Métaphysique, pp 80-81

خبرات ميتافيزيقية طمست معالمها مادية العلم . (٥)

وقد اهتم هويتهد بتحليل قصائد كل من وردسوورث وشلى ، فحاول ان يكشف لنا عما تنطوي عليه تلك القصائد من تعبير جمالي حي عن مفاهيم التغير ، والقيمة ، والموضوعات الازلية الابدية ، والثبات ، والتعضون ، وتداخل الموجودات . حقا لقد راع شلى ما في الطبيعة من تغير ، فراح يصف لنا ما في الظواهر الطبيعية من تحول وصيرورة وتطور مستمر ، بينما راع وردسوورث ما في الطبيعة من ثبات ، فمضى يصور لنا ما في الظواهر الطبيعية من دوام وبقاء وحضرة مستمرة ، ولكن كلا منهما قد عاد الى الطبيعة ، فاهتم بابراز ماتنطوي عليه من قيم جمالية ، وحاول الكشف عن حضرة الكل الضمنية في أجزائه العديدة المتناثرة . وهكذا جاء الشعر الرومانسي الانجليزي فأظهرنا على الصلة الوثيقة التي تجمع بين الميتافيزيقا والشعر بوصفهما نقدا لتجريدات العلم الالية الضيقة ، وعودا الى الواقعة الفردية المشخصة ، وكشفا لما تنطوي عليه الطبيعة من وحدة عضوية حية .

ولكن على حين نجد لدى وردسوورث وشلى ان « الطبيعة » في سكونها وحركتها هي الوجود ، نرى نوفالس وهيلدرلن يجعلان من « الزمان » صميم الوجود . وقد سبق لنا ان رأينا كيف اهتم نوفالس بتصوير هذا الاختلاط العجيب الذي يتم في نفوسنا بين الاحساس بالجديد والاحساس بالقديم ، وكيف قرر ان شعورنا بالآن قد يكون في الوقت نفسه شعورا بالابدية . فليس « الآن » عند نوفالس مجرد لحظة عابرة ، بل ان الابدية نفسها ماثلة في صميم « الآن » . وهذه الفكرة نفسها تتردد بكثرة عند الشاعر الانجليزي الصوفي وليم بليك W. Blake « ١٧٥٧ — ١٨٢٧ » ، فنراه يجعل من مهمة الشاعر ان يستبقي اللحظة العابرة ، لكي يضفي عليها ضربا من الثبات وكأن المرء حين يريد هذه اللحظة او تلك انما يقدسها ويخلع عليها نوعا من الابدية ! واما هيلدرلن فانه يحاول عن طريق الشعر ان يكشف لنا عن ذلك الطابع التاريخي الزماني الذي يكون صميم وجودنا ، بوصفنا كائنات ممزقة مقسمة الى ماض وحاضر ومستقبل ، ولكنها تسعى جاهدة في سبيل استرداد وحدتها بالارتكان الى دعامة ثابتة مستديمة . فنحن في صميمنا « حوار » مستمر بين الكثرة والوحدة ، بين الاختلاط والاتحاد ، بين التمزق والتكامل ، بين ديونيزوس والمسيح ؟ وهذا الحوار المستمر الذي يتحقق عبر الزمان انما هو سبيلنا الاوحد الى الابدية (٦) . حقا ان بعض قصائد هيلدرلن قد لاتنطوي على أي مدلول ميتافيزيقي ، ولكننا نستشف من ورائها احيانا بعض الاضواء الفلسفية ، فنشعر بان صاحبها لايكاد يرى في احداث الحياة أي معنى ، اللهم الا انها خلو من المعنى ! ولكن هيلدرلن حتى حين يشعرنا باننا موجودون على ظهر البسيطة دون ان ندري لوجودنا أي سبب ، يعود فيمجد « الآن » او اللحظة بوصفها تلك الخبرة الحية التي نعيشها في الحاضر . وكثيرا مايصف لنا هيلدرلن مناظر عادية مألوفة ، ولكننا مع ذلك نلمح

(٥) A.N. Whitehead : «Science and the Modern World» A Mentor book, N-Y, 1958, pp. 83-89

(٦) M. Heidegger : «Hölderlin et l'Essence de la Poésie » dans : «Qu'est-ce que la Métaphysique ? », trad. par Corbin, NRF., 1951 p. 241

في وصفه لها نبرة ميتافيزيقية عميقة تكاد تمضي بنا الى قرارة الحياة نفسها . فليس من الضروري للشاعر ان يقحم الفلسفة او التأملات العقلية في صميم قصائده ، لكي يصطبغ شعره بالصبغة الميتافيزيقية ، وانما حسبه ان يعبر بأصالة عن احساسه بالوجود ، لكي تجيء صوره الشعرية عامرة بالافكار الميتافيزيقية التي لاسبيل الى صياغتها او تحديدها .

والواقع ان الشاعر كثيرا ماينجح في الوصول الى قرارة الاشياء ، على حين يظل فكر الميتافيزيقي بتصوراته الجامدة ــ قاصرا عن بلوغ الاغوار السحيقة . حقا لقد حاول كل من نيتشه وبوهمه Boehme وشلنج الوصول الى « ماتحت الطبيعة » ،ولكن ويتمان Whitman ولورنس Lawrence وبول فاليري Valéry قد وفقوا الى مالم يوفق اليه هؤلاء ، فاستطاعوا ان يكشفوا لنا من خلال صورهم الشعرية عن تلك الاغوار السحيقة التي تكمن في قاع الطبيعة . والظاهر ان لدى الشاعر احساسا بما في الوجود من اضطراب ، وما في اللاوجود من نقاء ، فليس بدعا ان نجد لدى مالارميه ، وفاليري ، وغيرهما تعبيرات شعرية رائعة عن اللاوجود ، والممكن ، والواقعي ، الى اخر تلك المفاهيم الميتافيزيقية التي عبر عنها هؤلاء الشعراء الممتازون بموسيقاهم اللفظية البارعة . وربما كان في وسعنا ان نقول ان مالارميه لم يصطنع الشعر الا لكي يعبر عن احساسه بالعدم ، « سواء اتخذ هذا العدم صورة الخواء ام الظلام » وشعوره بالصدفة التي لاسبيل الى محوها ... الخ فلم يكن الشعر عند مالارميه سوى وسيلة للتعبير عن اللاوجود أو العدم ، والصدفة ، والامكان .. الخ

هنا قد يقول قائل : « انكم تحملون الشعر فوق ما يحتمل ، فما كان الشاعر يوما فيلسوفا او نبيا او رائيا ، وانما هو انسان يتغنى بما يجيش به قلبه ، ويتحف الناس بأهازيج حبه وروائع خياله . » . وردنا على هذا الاعتراض ان كبار الشعراء من أمثال هوميروس وسوفوكليس وفرجيل ودانتي وشكسبير وجيته وهيلدرلن ورلكه لم يكونوا مجرد فنانين يحرصون على « الجمال » ، بل هم قد كانوا اولا وبالذات وسطاء بين الآلهة والبشر يحملون الى الارض رسالة « المطلق » او « الحقيقة المقدسة » the holy . ولعل هذا ماعناه هيلدرلن حينما انشد يقول : « ماذا نعمل وماذا نقول في هذه الفترة الاليمة من الانتظار الطويل ؟ لست ادري ! وأي جدوى للشعراء في هذا الزمان القاسي المجدب؟ لعمري انهم ــ ان كنت لاتعلم ــ كهنة ديونزيوس المطهرون ، ولا بد لهم من ان يجوبوا بقاع الارض ضاربين في دياجير هذا الليل المقدس . » ، فليس الشاعر في نظر هيلدرلن او هيدجر مجرد فنان ينطق بلسان حال « الجمال » ، بل هو نبي او راء يذيع على الناس سر « الحقيقة القدسية » . وليس معنى هذا ان نضع الشعراء في مصاف الرسل او الانبياء « بالمعنى الديني الدقيق » وانما المقصود ان رسالة الشاعر تنحصر اولا وقبل كل شيء في اظهار الناس على الحقيقة القدسية الكامنة في قلب الوجود . فالشاعر يحمل رسالة روحية كبرى : لانه لابد من ان يضطلع بمهمة التعبير عن تلك « الرموز » او « العلامات » التي هي منذ القدم لغة الآلهة . وحين يقول هيلدرلن « ان الشاعر هو الذي يسمى الآلهة وينطق باسمهم » فانه يعني بذلك ان وظيفة الشاعر انما تبدأ حين يأخذ على عاتقه ان يفضي الى الناس بسر خبرته الروحية ، وان يعلن على الملأ حقيقة الشيء المقدس الذي أتيح له الوقوف عليه . وهذا مافعله ــ على وجه التحديد ــ في الايام الاخيرة شاعران من اكبر شعراء الالمان الا وهما ستيفان جورج Stefan George ورينر ماريا رلكه Rainer Maria Rilke

بيد ان الشاعر حين ينطق باسم الآلهة ، فانه لا يلغي الزمان ، ولا يتجاهل حاجات عصره ، بل هو يستشعر الحاجة الروحية التي تعتور قلوب بني جنسه ، ويربط شعره بالنوازع الدينية التي تجيش في صدور اهل عصره ، ومن هنا فقد اعلن هيلدرلن ــ حتى قبل ان يصيح نيتشه بعبارته المشهورة التي أكد فيها ان « الله قد مات » ــ زوال الآلهة القديمة ، وراح يبشر بمقدم اله جديد ! وقد سايره هيدجر شاعره المحبوب هيلدرلن فنادى بسقوط الآلهة ، وان كان قد اعترف بان وجود الله واقعة لاشك في صحتها . ومعنى هذا ان هيدجر قد ذهب الى ان مأساة العصر الحاضر انما هي صمت الآلهة ، او اختفاء الحضرة الالهية حتى لم يعد في وسع الانسان ان يسمى الله باسمه الحقيقي . وهذا بعينه ماحاول هيلدرلن ان يعبر عنه بألفاظه الشعرية الساحرة حينما انشد يقول : « ولكن ، يا صديقي ، اننا لم نجيء الا بعد فوات الاوان ! حقا ان الآلهة حية ما في ذلك شك ، ولكنها تحيا فوق رءوسنا في عالم آخر ، وهي تعمل هناك بلا انقطاع ، دون ان يخطر على بالها اننا ايضا نحيا ؟ وكأن اهل السماء يشفقون علينا ، فما يقوى الاناء الهش الضعيف على ان يضم بين جنباته ذلك الفيض الالهي الدافق ... » ويمضي هيلدرلن في وصف شقاء الانسان الحديث بعد ان خلفته الآلهة وحيدا لا سند له ولا عون ، ولكنه يعلن ان الحقيقة القدسية لم تمت ، ويبشر الانسان الحديث بمقدم اله جديد : ففي أعماق العدم الذي يرين على الموجود البشري من كل صوب ، انما تكمن تباشير الفجر الالهي الجديد ! (٧)

ولسنا نريد ان نسترسل في المقارنة بين هيلدرلن وهيدجر ، وانما حسبنا ان نقول ان تلاقيهما لم يكن من قبيل الصدفة ، بل لقد جمعت بينهما تلك الرغبة المشتركة في النزول الى اعماق الهاوية من اجل الكشف عما وراء النجوم ! حقا انه قد يكون من الخطأ ان نبحث عن « افكار » لدى هيلدرلن ، او عن « شعر » لدى هيدجر ، ولكن من المؤكد ان ثمة « حقيقة ميتافيزيقية شعرية » تفرض نفسها

(٧) Cf. M. Heidegger : « Existence and Being», Vision, London, 1949, (An account on the Four Essays by W. Brock) pp. 190-192

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .

علينا من خلال اشعار الواحد وأفكار الاخر . وليس بدعا ان يتلاقى هيدجر وهيلدرلن ، فقد تلاقى من قبل كانت وشيلر ، وشوبنهور وجيته ، وهويتهد وشلى ووردسوورث وبرجسون وبول كلودل .. الخ .. ولئن كان فيلسوف مثل افلاطون قد حمل بشدة على شعراء اليونان من امثال هزيود وهوميروس ، الا ان افلاطون نفسه هو الذي مزج الشعر بالفلسفة الى اعلى درجة ، وأفلاطونيته هي التي فتحت السبيل امام الكثير من الشعراء « عبر العصور التاريخية المتعاقبة » للتسلل الى الميتافيزيقا . وليس غريبا ان نجد لدى كثير من الفلاسفة المعاصرين اهتماما زائدا بالشعر والشعراء ، فان قصائد بودلير ، وكيتس ، وفاليري ورلكه ، ونوفالس ، ورامبو ، ووايتمان ، وغيرهم ، كثيرا ماتقتادنا الى صميم « المنطقة الميتافيزيقية » دون وسائط عقلية او تصورات ذهنية . ولسنا نعني بذلك ان مزاج الفلاسفة هو بعينه مزاج الشعراء ، او ان عبقرية الميتافيزيقي وعبقرية الشاعر هما بالضرورة من فصيلة واحدة ، وانما مانريد ان نقرره هو ان التعبيرات الشعرية كثيرا ماتجيء مليئة بالشحنات الميتافيزيقية ، كما ان المفاهيم الميتافيزيقية كثيرا ماتجيء مغلفة بالرموز الشعرية . وهل استطاع الفيلسوف يوما ان يجتاز مرحلة الخيال ، لكي يقبض على الحقيقة بجمع يديه ، ويزعم لنفسه انه ليس في فلسفته سوى البداهة والوضوح واليقين والنظر العقلي الخالص ؟ او هل نجح الميتافيزيقي يوما في القضاء على الاساطير والرموز والشفرات ، حتى يدعي ان ليس في مذهبه سوى نتائج مستخلصة من مقدمات ؟

هنا قد يقول البعض ان الفكر الذي يلتجيء الى الشعر والرمز والتشبيه لهو فكر غامض لم يستطع بعد ان يستبين ذاته ، ولكننا لو عدنا الى تاريخ التفكير الميتافيزيقي لاستطعنا ان نقف على الصلة الوثيقة التي طالما جمعت بين الحقيقة والشعر . ومهما حاول الفيلسوف ان يحكم عقله في كل شيء ، بل مهما وقع في ظنه ان مذهبه الميتافيزيقي هو نظر عقلي خالص ، فانه لابد من ان يجد نفسه محمولا على اجنحة الخيال الى عالم تختلط فيه الحيقة بالشعر ، ويمتزج فيه الواقع بالمثال . وحتى حين يبدو لنا ان ثمة صراعا من قبل الميتافيزيقا ضد الشعر ، او من قبل الشعر ضد الميتافيزيقا ، فان هذا لن يمنعنا من الاعتراف بما يجمع بينهما من صلة وثيقة : لانه مايكاد الواحد منهما يصمت ، حتى يرتفع صوت الاخر ، وما يكاد الواحد منهما يتقهقر او يعترف بالهزيمة ، حتى يتقدم الاخر لكي يأخذ بيده !..

ولعل هذا ما أراد جان فال ان يعبر عنه حينما تصور الميتافيزيقا تخاطب الشعر فتقول له : « ايها الشعر ، انك لعمري أخي الوفي ، فليرتفع صوتك عاليا ، ولتعلم انني انصت اليك ، فانني حينما ألقى اليك السمع ، انما اكون انا المتكلمة ! » . ولئن كنا نجهل — كما يقول فال — ماذا عسى ان تكون الميتافيزيقا ، وماذا عسى أن يكون الشعر ، الا اننا نعلم على الاقل ان جوهر الشعر لابد من ان يظل ميتافيزيقيا ، ومن الجائز ايضا ان يظل جوهر الميتافيزيقا شعريا .. اليست الميتافيزيقا هي شعر الفلاسفة ، كما ان الشعر هو ميتافيزيقا الادباء ؟ الا يصبح الفيلسوف شاعرا لكي يصير ميتافيزيقيا افضل ، والشاعر فيلسوفا لكي يصير شاعرا افضل ؟!

القاهرة — زكريا ابراهيم

صدر حديثا

في

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من أشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح .

الحلقة الاولى

البغي الفاضلة ...
وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

طبعة جديدة

في غلاف ملون

الثمن ٢٠٠ ق.ل

الحلقة الثانية

ماريانا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة

شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل